لمحة سريعة في

الشعر الغزلي الفرعوني

بقلم مجاهد عبد المنعم مجاهد

شعرنا المصري الحديث يعاني ازمة خطيرة ، أزمة تعبيرية، وأزمة تذوقية ، وأزمة تتعلق بمشكلة النشر .. وتتداخل هذه الاوجه الثلاثة ، للازمة .. فما المخرج منها ؟ ليس هنا مجال الاجابة عن هذا ، فهذا امر يطول شرحه ، ولكنا كنا قد ذكرنا في مقال سابق بعنوان « الشعر الحر وقضاياه »(١) ان احد جوانب الخروج من الازمة ان يعاود الشعراء انفسهم حصيلتهم الثقافية وان يرجعوا الى شعرنا كله : عربيه وقبطية وفرعونه، علهم يتحسسون روح الشعب المصري من جذورها ، ذلك الشعب الذي يتوجهون بانتاجهم اليه ... وان يتعرفوا على موضوعات هذا الشعر وطرق صياغاته ، وقيمه الجمالية ... علهم يطورون شعرهم نفسه .. وليس معنى هذا ان الشعراء لا يتحسسون هذا الشعر ، ولكني اكاد ازعم انهم لا يتعرفون على دقائقه .

والجانب الذي نحاول ان نتناوله هنا هو جانب الشعر الفرعوني ، ولما كان هذا البحث يحتاج الى دراسة شاملة واسعة ، فلن اتناول هنا الا شريحة واحدة في ايجاز سريع هو الجانب الغزلي ، وغرضي الاساسي ان اكشف ـ نقديا ـ « أغنيات غزلية » التي تنشر مع هذا المقال القصير .

يظن الكثيرون ان شعرنا الفرعوني الغزلي المتعلق بامور الحياة لم يكن له حظ كبير عند المصريين، فقد اهتموا بالجانب الديني وبالاناشيد المتعلقة بالالهة، يشهد بهذا كثرة النصوص التي على المعابد والمقابر والاهرامات واوراق البردى ، بينما لم يعرف الشعر الدنيوي الا في شذرات قليلة .. ولكن لعل هذا راجع الى ان الشعر الدنيوي كان متداولا على شفاه الشعب فلم يكن محتاجا الى ان يدون كما هو الامر مع الشعر الديني .. ومن ثم نستطيع ان نرى « ان الادب الدنيوي المصري القديم يتساوى في كثرته مع ادبها الديني »(٢) .. حقيقة كان الشعب المصري يؤمن ان وراء الموت حياة اخرى لكنه كان ينظر ايضا لحياته على الارض نظرة تستحق العناية ايضا .. « حقا لقد كان الرجل التقي يعتقد في استمرار الحياة بعد الموت ، ولكنه لم يكن ينتظر هناك غير وجود خيالي لا يدعو الى الابتهاج (٣) ومن ثم نظر الى حياته على الارض ، حاول ان يصوغ فلسفتها ، وان يعبر عنها بوجدانياته فخرج شعره الغزلي والدنيوي، فقد « بحث المصريون في كل مكان الى النظر الى الجانب البهج من الحياة على الارض ، ولقد نجحوا في ان يجدوا انه من المسر تماما رغبتهم في ان يعيشوا هنا اسفل على شواطيء النيل اكثر رغبة في العالم الاخر والمعيشة بين الآلهة (١)

لقد صاغ المصريون حقا شعرا عن الالهة ، لكنا لو عرفنا الحقيقة ؛ لعرفنا ان معظم هذا الشعر كان زائفا .. اننا « ما نكاد نصل الى الاناشيد للالهة ، وهي تلك الاغاني التي تستغرق موضوعاتها مدح آلالهةحتى نجدها كما لو ان ينابيع الشعر الحقيقة قد جفت فيها » (٢) وحقيقة قد عبروا ومدحوا الملوك، لكنهخرج شعرااكثر زيفا من شعرهم الديني .. اما في تعبيرهم عن حياتهم فقد خرج شعرهم من الواقع معبرا عن آلامهم وآمالهم .. لقد وصف الشعب الكادح حياة بؤسه بقوله عن محفة الملك التي يشتالونها : خير ان تكوني ممتلئة من ان نراك خاوية .. وعبروا عن حياتهم في الحقل وعن الحصاد وعن الصيد ، وعن الحب .. فخرج شعرهم غنيا مليئا بالعاطفة « فالاغنية الشعبية تصدر من روح الشعب مباشرة في جد دائما ـ اما ما كان ينشر في المعبد فقد كان يخضع لتقاليد مقدسة منذ مئات والاف السنين » (٣)

وبينما كان الملك ينصح ابنه ـ الذي سيتولى العرش من بعده .. الا يثق بأحد ، وان يكون غادرا والا يفعل معروفا في شخص ما ، نرى المصري البسيط يقول :

اعط الخبز لمن لا يملك حقلا

واجعل لنفسك على الدوام اسما طيبا في الاجيال التالية(٤)

وكل هذا يريده المصري ان يتحقق على الارض لا في عالم غريب ليس لديه ضمان عن وجوده ..

وكان من شعر المصريين الواقعي شعرهم الغنائي ، « انه شعر عاطفي ـ الا في حالات نادرة ـ انه بصفة عامة ـ انفعال يجد لنفسه توترا وتعبيرا واعيا » (٥) فما مظهر هذا التعبير ؟ ان الكلمات بسيطة وموحية ،

(١) الآداب عدد مارس ص ٦٨ ـ ٧٠

(٢) Wiedemdun, A. : Popular Literature In Ancient Egypt. David Nutt. London 1902. p.3

(٣) ادولف ارمان ، هرمان رانكه : مصر والحياة المصرية في العصور القديمة . ترجمة عبد المنعم ابو بكر ومحرم كمال . مطبعة النهضة المصرية ص ٤٣٢

(١) Wiedemdun, A. : Popular Literature of Ancient Egypt. p.12

(٢) ادولف ارمان : مصر والحياة المصرية في العصور القديمة ص ٤٣٨

(٣) المصدر السابق : ص ٤٣٨

(٤) المصدر السابق ص ٤٢٣

(٥) Wiedemdun, A. : Popular Literature of Ancient Egypt. p.6

ويزداد تأثيرها اكثر عندما تغنى . . «ان الصياغة بسيطة، ويبدو مؤكدا ان الكلمات يرجع تأثيرها اساسا الى صوت المغني»(١)

كيف كانت الاوزان الشعرية في الشعر الفرعوني ؟ ان الامر لم يزل يكتنفه الغموض نظرا الى ان اللغة الهيروغليفية لم يعرف الا حروفها الصامتة ، بينما حركاتها ما زالت مجهولة . . غير ان « ابسط عناصر هذه الصيغة هو البيت الذي يتكون غالبا من شطرين ، يطابق كل منهما الاخر لا من حيث عدد المقاطع وانما من حيث النبرات ويحتويان عادة على نبرتين الى اربع » (٢) ثم انه « يحلو المصري ان يقسم الاناشيد المهمة ذات الطابع الفني الى فقرات متتابعة على ان يتبع في كل فقرة طريقة التساوي في الاجزاء المتقابلة»(٣)

ومن الملاحظ ان الشعر في اواخر الدولة الوسطى وفي الدولة الحديثة ، بدأ يتخلى عن القافية ــ وربما كانت منها ، كما يحدث الان في شعرنا ، كما انه بدأ يتخلص من المحسنات اللفظية ، ولقد كان الشاعر الفرعوني يعرف هذه المحسنات ويبدع فيها اثناء عهد الدولة القديمة وكان « المستحب في هذا المجال الجناس اللفظي ونضرب لذلك مثلا الشعر الآتي :

أيو مرو مح ام موباوت
تابعج ام مروتف
وترجمة هذا الشعر هي حين تمتليء البحيرات من الماء الجديد وتفيض الانهار بحبه

ويلاحظ في الشعر سالف الذكر ان من الكلمات العشرة المذكورة تبدأ سبع منها بحرف الميم » (٤) وهذا ما فطن اليه بعض الشعراء العرب كالبحتري مثلا في مثل قوله « كقضقضة المغرور ارعده البرد » وهو ما يعرف من الغرب باسم Aliteration

بدأ الشعر يتخلص من هذه المحسنات خصوصا ان الاتجاه كان سائرا نحو استخدام اللغة الدارجة لكن الشعر بدأ يستعيض عن هذا بقوة الصورة والتشخيص والتعبير عن المجرد بالمشخص (٥) كقول الشاعر يصف الموت :

يتمثل الموت امامي الآن
كعبيق أزهار اللوتس
او كالجلوس لمعاقرة الشراب على الشاطيء
يتمثل الموت امامي الآن
كطريق في المطر

---

(١) Budge, E.A.W. : The Literature of Ancient Egyptians Dent & Sons. London. 1914. p.241

(٢) ارمان : مصر والحياة المصرية في العصور القديمة ص ٤٤٨

(٣) المصدر السابق : ص ٤٥٠

(٤) المصدر السابق: ٤٥٤

(٥) من الملاحظ ان الاستاذ محمود امين العالم عاب على الشاعر محمود حسن اسماعيل عكس هذه الطريقة اي طريقة تجريد المشخص (يراجع كتاب : من الثقافة المصرية)

كعودة الانسان الى وطنه في سفينة حربية (١)

وكانت اغنيات الغزل رقيقة ، مغلفة بالحياة العارمة ، كان المصري يرى في الحب قوة عارمة تدفعه الى التغلب على الصعاب ، يقول الشاعر الفرعوني :

ان قبلات حبيبتي على الضفة الاخرى من النهر ،
وان مجرى فرع النهر يجري بيننا ،
وهناك تمساح يرقد على الضفة الرملية
لكن اخطو الى الماء واخوض الفيضان
ان شجاعتي كبيرة وسط المياه
والامواج صلبة كالارض تحت قدمي
ان حبها يمدني بالقوة
آه ! لقد اعطتني تعويذة ضد المياه (٢)

والشاعر الفرعوني في غزله يعرف كيف يجسم التجربة فهو خبير بأن اجمل القبل عندما يكون ثغر حبيبته مفتوحا حيث تصل النشوة الى اخر درجاتها . . وهو يتمنى ان يكون خادمها لكي يرى تكوين اعضائها . . وهو يتمنى ان يكون خاتما في اصبعها . . . او حارسا لديارها ليسمع تعنيفها له . . وهو في كل هذا يريد ان يحقن هناءته على الارض :

اتبع قلبك وملاهيك
انجز اعمالك على الارض
ولا تعذب قلبك
حتى يدركك يوم العويل (٣)

اغنيات الشاعر الفرعوني رقيقة رقيقة ، حلوة حلوة . . « ان صوت عصفورة الجنة يتكلم قائلا : ان الارض منيرة . . لقد وجدت اخي في سريره ، فقلبي اذن فرح » (٤)

الشعر الفرعوني اذن من ناحية الغزل كان يعكس حياة المصريين الحسية ، وكان يصور داخله علاقاتهم الاجتماعية، بل لقد كانت تشبيهاته منتزعة من الواقع المصري. ولكي نبرز هذا واضحا سنحلل قصيدة « اغنيات غزلية » . .

لسنا نعرف بالضبط متى الفت هذه القصيدة ، ولا من الفها . . ويغلب الظن انها الفت قبل عهد الرعامسة ، كما يظن على الارجح ان مؤلفها واحد ، فقد كتبت كلها بخط واحد وان لا يمنع ان يكون احد النساخ قد قام بهذا . . . فلنتجاوز هذا لننظر في القصيدة . . .

نلاحظ اول ما نلاحظ ان الشاعر الفرعوني صاغ الاغنية الاولى بطريقة سبق بها محاولة اليوت في قصيدته « الارض الخراب » لعدة آلاف من السنين . . فالقصيدة الاولى تتكون من مقطوعات سبع ، كل منها منفصل في ناحيته الزمنية والمكانية . . لكن كل مقطع يعكس تجربة صغيرة في مجرى حياة العاشقين . . وكلها تلضم جميعا في خيط واحد يعكس هذه الحياة بما فيها من وصل وصد ، وعلاقات اجتماعية ومواقف معاشة . . حقيقة انها لا تصل في المستوى الفني الى

---

(١) ارمان : مصر والحياة المصرية ص ٤٣٤
Wiedemdun, A. : p.8.

(٣) ارمان : مصر والحياة المصرية ص ٤٣٢

(٤) سليم حسن : الادب المصري القديم ــ لجنة التاليف والترجمة والنشر ١٩٥ الجزء الثاني ص ١٦٢

مستوى البيوت ، لكن يجب ان نضع في ذهننا حقبة ٢٠٠٠ سنة بين الشاعرين .

يبدأ الشاعر في المقطوعة الاولى بان يصور محاسن حبيبته وهي محاسن جسدية ، فحقيقة التجسيم مما يغرم به الفراعنة ... تتمثل في فن النحت والعمارة ، وتنعكس في الشعر ايضا.. فالحبيب يصف جمال اخته ـ حبيبته ـ الجسدي ، ويصور قوة الحب ، وان حبيبته تشبه الاخريات في بعض الملامح الا انها تتميز بصفة خاصة ليست عندهن.. هذه الصفة هي انها الوحيدة التي استطاعت اسره..

ثم تجد في المقطوعة الثانية ان الشاعر يجعل الحبيبة هي التي تتكلم، وهذا تنويع جميل يحاول شعراؤنا الحديثون ان يبرزوه ، ولا نجده في الشعر العربي .. وهي لفة من الشاعر الفرعوني حتى يبرز اغنياته .. وفي هذه المقطوعة تذكر الفتاة ايضا ما يثيرها من حبيبها ، وهي ايضا اشياء حسية ، وتعكس الفتاة في حديثها العلاقة الاجتماعية ، فبالرغم من ان حبيبها جارها الا انه محرم عليه زيارتها لان التقاليد تقضي بهذا .. وهي لا تملك الا ان تضع بين يدي حبيبها عمرها ، فان الالهة قد قضت بذلك ، وهنا يختلط الحب بالقدر ..

ونلمح في المقطوعة ظاهرة الحديث او الحوار الجانبي داخل السرد « وكم جميل ، بان يقال له : ـ محرم عليك ان تراها » ومن ثم نرى الحوار الجانبي احد الوسائل المسعفة للتعبير الشعري تماما كما يحاول الشعر الحديث ان يعبر عنه ..

وتواصل الحبيبة في المقطوعة الثالثة حديثها وانها ستمنحه قلبها وسوف يعطيه لاول الرفاق في الصيد .. ولعل ما كانت عادة عند القدماء ان يمنح اول صيد لاول رفاق الصيد.

ثم تجسد لنا المقطوعة الرابعة لحظة زمنية مكثفة للفتاة وهي تعطر نفسها وتتزين .. ثم تسمع صوت الحبيب فتضطرب في لباسها .. وهي تجربة فريدة من اجمل تجارب الشعر ... وهي لا تذكر التجربة ملخصة وانما تفصلها . فقد نسيت المراوح ولم تعطر الرداء ولم تكمل لبس المئزر ...

ثم هي تطلب من قلبها ان يهدأ وان يقيد حنينه حتى لا يتحدث القوم عن عشقها .. فنرى ثانية العلائق الاجتماعية تبرز في قصيدة حب..

ثم ان النقلة من الحديث عن تجربة الاضطراب الى مخاطبة القلب كانت نقلة طبيعية وفق فيها الشاعر ..

يعاود الشاعر حديثه في المقطوعة الخامسة ونراه هو الاخر يخلط بين الحب والقدر ، فيطلب من الالهة ان تساعده في ان ينال حبيبته ، ثم بعد ان قابلها يذكر في نغمة مأساوية انها تغيبت خمسة من الليالي ..

ثم نجد ترجيعا اخر للحبيبة في المقطوعة السادسة لتكشف تجربة اخرى .. تجربة المرور قرب بيت الحبيب وهو واقف مع اهله .. وفي ابتهالة صبية ، تتمنى لو تركته امه لها وتطلب من الالهة ان تساعدها على ذلك ..

وتمر سبعة من الايام .. الشاعر مريض ، والدواء لا ينفعه ولا الحر .. وانما دواؤه ان تبعث الحبيبة رسولها اليه او تنظره فانه اذا رآها وقبلها يذوب كل ضر ، وكل مر .. ولكن تمر الايام السبعة وهي لا تمر ..

وان ترجيع بداية القصيدة في الخاتمة اعطاها حسا دراسيا نراه دائما يتردد في مواويلنا في الريف المصري ويعطيها طابعا فريدا ..

القصيدة تتكون من تناثرات لا وحدة زمنية فيها .. لكنها ترتبط داخل حياة العاشقين فتلقى ظلا على هذه الحياة، عاكسة علاقتهما الخاصة وتمنياتهما وعلاقاتهما داخل المجتمع .. كل هذا في نظم رقيق رقيق ، حلو حلو ،وحزن شفيف ، فيه همس وبناء بالصور وتآزر بينها .. لا بطريقة التقرير وتجميد المواقف ..

فاذا كنا في الاغنية الثانية .. نرى التشبيهات منتزعة من الواقع .. فالحبيبة تتمنى ان يأتي حبيبها بسرعة مثل رسول الملك ، ذلك الرسول الذي اعدت الجياد له في كل محطة .. وهنا نرى ان الشاعر يصور ما يتمتع به الملوك من معدات الراحة .. حتى ان الحبيبة تنزع هذه الحياة وتستمد صورها من هذا الواقع لملاقاة حبيبها .. وهي في نفس الوقت تبين المستوى الذي عليه مصر ، فهذه الاغنية « تنبئنا عن سرعة نقل الاخبار باعداد مصر ، فهذه حظائر للخيل التي تتناوب العدو » (١) .. وتبالغ الحبيبة في وصف لهفتها لملاقاتها ، فتذكر انه ليس لديه في الطريق فسحة لكي يأخذ انفاسه ..

ثم تذكر تشبيها اخر ، بان يجيء كالغزال الذي تطارده الكلاب ، وهذا يذكر بتشبيهات كثير عزة السخيفة .. وانه لا بد ان يصل اليها سريعا .. وهي لا تقيس الوقت بمقياس حسابي كما يقاس المكان ، ولكن بمقياس نفسي .. « بمثل ما يقبل الفتى الفتاة أربعا » .. ثم تذكر انه سيصل سريعا لانه يطارد الحبيبة .. ومن ثم نراها تجعله في بدء المقطوعة مطاردا كالغزال ثم مطاردا ، وهو مزج حلو جديد في الشعر.

فاذا انتقلنا الى الاغنية الثالثة،نجدها تبدأ بداية شعبية « بداية الكلام عذب » وهي تشبه في هذا بداية الاغنية الاولى « بداية الكلام . يقوله النديم » مشابهة في هذا طريقة الغناء الشعبي ببدء الكلام بمدح الرسول .. ثم تصور حبها الحسي وقد عذبها وانها تود لو يعتصرها حبيبها بين يديه حتى الصباح ولا ملامة عليه من المجتمع .. لكن هذا بعد ان يقدم الذبائح .. وهي ستتحدى غضبة السماء ستتحدى القدر ان اراد ان يتحداها ... وسوف تكون لحبيبها لان الالهة حكمت بذلك .. انها تستسلم حكما للقدر، وهي تستسلم ايضا تحديا للقدر لو اراد التحدى .. وهنا نجد ترجيعا للاغنية الاولى من ان الالهة قد حكمت للشاعر بان ينال بغيته ...

ثم نجد هذا تشبيها عاديا.. فقد شبه شعرها بالحبال التي كبلته ، وخدودها بانها كوته .. ثم يطلب من رسله اليه

(١)سليم حسن : الادب المصري القديم ص ١٦٩

أنه يريد ان يقبلها ... فماذا يحدث ؟ هنا يقطع الشاعر رحلته التعبيرية على لسانه ، ليفاجئنا بحديثها هي بانها هي التي تتمنى ان تقبله ... انها قفزة تعبيرية رائعة ونقلة فريدة في الشعر كله ، بل انها تستلم خيط السرد وتكمله ، بانها رأت حبيبها قرب النهر يصنع محرابا ويقدم خموره للاله ليساعده في حبه ...

ثم نجد في المقطع الثالث عتابا من الحبيب .. اذ كيف تجعله ينتظر عند بابها ؟ ويتساءل : من سيشاركه ليلته الليلاء هذه ؟

لكنه يمر قرب بيتها .. ويحسد حارسها الذي على بابها ، وهو سيقدم الذبائح لكي يلج اليها .. ولا يريد ان يفتح الباب في سهولة .. لانه سيقدم القرابين .. كما ان الحبيب يدخل تمنياته .. فيذكر انه سيقدم لحم الثور هدية للصبي النجار الذي صنع الرتاج من الورق والباب من القش .. ثم يلج .. ليجد الحبيبة في سريرها وهي تردد له: بان البيت الذي هي فيه هو بيته ايضا ..

« اغنيات غزلية » حاولت ان اصوغها شعرا .. من بعض مقاطع باللغة الانجليزية مستعينا من ذلك بترجمة الاستاذ سليم حسن .. متغاضيا عن اشياء بسبب الصياغة الشعرية ... محاولا في هذه الكلمة ان القى ضوءا ضئيلا على شعر الفراعنة الغزلي ، محاولا تكثيف هذه الاغنيات ... ولن تتضح المحاولة وتعمق ألا اذا قام الاخرون لمواصلة الطريق ، راجيا ان انشر على القراء نماذج اخرى صنعتها شعرا مما ترجمت .. علّ شعرنا يتطور ، وتعمق ثقافتنا من تراثنا.

القاهرة

مجاهد عبد المنعم مجاهد

اغنيات غزلية

من الشعر الفرعوني المصري القديم

الترجمة والصياغة الشعرية بقلم : مجاهد عبد المنعم مجاهد

« الاغنية الاولى »

١ ـ المقطوعة الاولى

بداية الكلام
يقوله النديم
بانها فريده ..
وليس في الوجود مثلها شبيه ..
وارشق الجميع
وتشبه النجوم
اذا ابتدت سنه
ضياؤها جميل
وجلدها السني
جميلة العيون ساعة الغرام
رقيقة الشفاه
اذا انتهى الكلام
قليلة الكلام
طويلة العنق
وثديها حرير
وشعرها كحلكة السما
ذراعها تفوق نضرة الذهب
وكل اصبع كزهرة البشنين
عظيمة العجز
وخصرها نحيل
رشيقة القوام ان مضت تتيه
وتهت عندما طبعت قبلة الغرام
وان مشت ترى الرجال ينحنون
اعناقهم ملوية اذا مشت
وتنبهر
لها العيون
وينتشي الذي يقبل العيون
فانه يكون اول الشباب قوه
وان مضت فانها ترى
كأي واحده
وان تكن وحيدة البنات .

٢ ـ العذراء تتكلم

اخي يثير صوته فؤادي
فأمرض الفؤاد صوته
وان تكن دياره بقرب دارنا
فليس في استطاعتي الذهاب كي اراه
وكم جميل
بأن يقال له :
« محرم عليك ان تراها »
فانني اضيع عندما أراه
وتوجع الفؤاد ذكرياته
وحبه يمور في فؤادي
وانه مجنون
وانني شبيهة به
وليس يدري انني اريد ان اقبله
لو كان يدري لوعة الفؤاد
فربما استطاع ان يجيء
فيا اخي وضعت في يديك عمريه
وقد قضت بذلك الالهه (١)

(١) الالهة حامحور

تعال كي أشاهد الجمال فيك
سيفرح الجميع : والدي واميه
سيفرح الجميع
سيفرحون بك
يا أيها الحبيب

ـ المقطوعة الثالثة

لكم اود ان ازور موطن اللقا
هناك حيث الملتقى
وانني رأيت صاحبي « محا » على جواد
وفي ركابه
تسير زمرة الشباب
وقد تحير الفؤاد
ترى .. أمر به ؟
لقد بدا الطريق كالنهر
وليس تعرف القدم
طريقها
فيا فؤادي
قد ضعت يا فؤادي
فان مررت قرب ذلك الحبيب
سأخبره
عن الوجيب
اقول له :
« القلب لك »
وبابتسامة سعيدة يردد اسميه
وسوف يعطي اول الرفاق قلبيه

٤ ـ المقطوعة الرابعة

ويخفق الفؤاد في الضلوع

ـ التتمة على الصفحة ٦٥ ـ